المقتطف

الجزء العاشر من السنة السادسة عشرة

١ يوليو (تموز) سنة ١٨٩٢ الموافق ٧ ذو الحجة سنة ١٣٠٩

نحن واسلافنا

نحن ابناء مصر والشام والعراق سكنا بقاعاً من الارض كانت مهد الحضارة وكان اسلافنا الذين سكنوها على ما نودّ ان نكون اوانح لنا الارتقاء المتوالي خمسين عاماً . فانهم اقتنوا حرث الارض وزرعها واستغلّوا منها ما يمون خمسة اضعاف سكّانها الحاليين ونحن لا نكاد نمون انفسنا على قلة عددنا والارض لم تزل مكانها والنيل والفرات ودجلة وامطار الشام وانهارها وغدرانها لم تزل كلها كما كانت في ايام اسلافنا الاوّلين . وتوسعوا في الصناعة فشادوا المباني الباذخة التي يعجب بها ابناء هذا العصر ويجدون فيها من الفخامة والمهارة ما يزري بمباني المحدثين . واتقنوا النقش والتصوير والحياكة والصباغة وعمل الزجاج والخزف وسبك المعادن وصوغها ولم تزل مصنوعاتهم شاهدةً على حذقهم ومهارتهم فترى الحلى والحلل والكراسي والموائد والاسلحة والآنية دُفنت في الارض ثلاثة آلاف عام ثم عُرضت في معارض التحف فاستوقفت الباحثين وادهشت الناظرين . ووسّعوا نطاق التجارة برّاً وبحراً فسارت قوافلهم حتّى بلغت الهند وخاضت سفنهم البحر الاحمر وبحر الروم والاوقيانوس الهندي والاتلنتيكي ودارت حول افريقية . واتّجروا مع كل الامم والقبائل من اهالي بريطانيا واسبانيا الى اهالي الهند والصين وكانت سفائن تجارهم ترسل من بابل واشور فيقبلها تجار مصر والشام كما تقبل اوراق البنوك في عواصم اوربا الآن . وعدل كثيرون من ملوكهم في الرعيّة وعزّزوا حصون ممالكهم وثغورها ونظموا جيوشها البريّة والبحريّة وهابتهم الممالك القاصية وخشيت صولتهم . وليس في ما تقدّم شيء من المبالغة الشعريّة او المزاعم التي لا يقوم عليها دليل بل كلّه حقائق ثابتة

ومنذ الف سنة فاكثر اخذت هذه الممالك تنحدر رويدًا رويدًا فقلّ عدد السكان من خمسين مليونًا الى نحو سبعة ملايين وبارت الارض وغمرت سهولها وقحلت جبالها وامسى وادي الفرات الذي قامت فيهِ ممالك بابل واشور قاعًا صفصفًا وباتت قصور ملوكها مأوًى للبوم ومنعبًا للغربان وخربت هياكل منف وطيبة ودُرست آثار الترع والمحلجان من وادي النيل ولم يبقَ لقصور الفراعنة والبطالسة والقياصرة عين ولا اثر ورَدمت الرمال مرافئ صور وصيداء وامحت مبانيها منشرًا للشباك ومقالع للحجارة

ونحن حتّى الساعة ننظر آثار اسلافنا فندوس عليها او نخلسها لنبيعها للسبّاح وقد كان هذا شأننا منذ مئات من السنين. ذكر الرحّالة المؤرخ عبد اللطيف البغدادي في كلامهِ على القطر المصري شيئًا من ذلك ينطبق على ما هو مشاهد ليومنا هذا. قال في كلامهِ على حجارة منف" تجد هذه الحجارة مع الهندام المحكم والوضع المتقن قد حُفرَ بين الحجرين منها نحو شبر في ارتفاع اصبعين وفيهِ صدأ النحاس وزفجرته فعلمت ان ذلك قيودٌ لحجارة البناء وتوثيق لها ورباطات بينها بان يُجعل بين الحجرين ثم يصب عليهِ الرصاص وقد شبعها الانذال والمحدودون فقلعوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا لاجلها كثيرًا من الحجارة حتّى يصلوا اليها ولعمر الله قد بذلوا الجهد في استخلاصها وابانوا عن تمكن من اللؤم وتوغّل في الخساسة." الى ان قال" ويجدون نواويس تحت الارض فسيحة الارجاء محكمة البناء وفيها من موتى القدماء الجم الغفير والعدد الكثير قد لفوا باكفان من ثياب القُنّب لعلهُ يكون على الميت منها زهاء الف ذراع وقد كفن كل عضوٍ على انفرادهِ كاليدِ والرجل والاصابع في قُمطٍ دقاق. ثم بعد ذلك تلف جثة الميت جملة حتّى يرجع كالحمل العظيم ومن كان يتتبع هذه النواويس من الاعراب واهل الريف وغيرهم يأخذهن الاكفان فما وجد فيهِ تماسكًا اتخذهُ ثيابًا او باعهُ للوراقين يعملون منهُ ورق العطّارين. ويوجد بعض موتاهم في توابيت من خشب جميز مُخين ويوجد بعضهم في نواويس من حجارةٍ إما رخام واما صوان وبعضهم في أزيار مملوءة عسلاً. وخبّرني الثقة انهم بينما كانوا ينقّبون المطالب عند الاهرام صادفوا دنًّا ففضوهُ فاذا فيهِ عسل فاكلوا منهُ فعلقَ في اصبع احدهم شعر فجذبهُ فظهر لهم صبيٌّ صغير متماسك الاعضاء رطب البدن عليهِ شيءٌ من الحلى والجوهر. وهؤلاء الموتى قد يوجد على جباههم وعيونهم وأنوفهم ورَق من الذهب كالقشر. وربما وُجد قشرٌ من الذهب على جميع الميت كالغشاء وربما وجد عندهُ شيءٌ من الذهب والحليّ والجوهر وربما وجد عندهُ آلته التي كان يزاول بها في حياتهِ. واخبرني الثقة انهُ وجد عند ميت منهم آلة المزيّن مسنًّا وموسًى وعند

آخر آلة النجّام وعند آخر آلة الحائك ويظهر من حالهم انهُ قد كان من سننهم ان يدفنوا مع الرجل آلتهُ ومالهُ . وسمعت ان طوائف من الحبشة هذه سننهم ويتطيرون بمتاع الميت ان يمسوهُ او يتصرّفوا فيهِ

وقد كان من سننهم والله اعلم ان يُجعل مع الميت شيء من الذهب . فخبّرني بعض قضاة بوصير وهي مجاورة مدافنهم انهم نبشوا ثلثة اقبر فوجدوا على كل ميت قشرًا رقيقًا من الذهب لا يكاد يجتمع وفي فيهِ سبيكة من الذهب فجمع السبائك الثلثة فكان وزنها تسعة مثاقيل والحكايات في ذلك أوسع من ان يحصرها هذا الكتاب

واما ما يوجد في اجوافهم وادمغتهم من الشيء الذي يسمونهُ موميا فكثيرٌ جدًّا يجلبهُ اهل الريف الى المدينة ويباع بالشيء النزر ولقد اشتريت ثلثة أرؤس مملوءة منهُ بنصف درهم مصريّ واراني بائعهُ جوالقًا مملوءا من ذلك . وكان فيهِ الصدر والبطن وحشوهُ من هذا المومياء ورأيتهُ قد داخل العظام وتشرّبتهُ وسرى فيها حتّى صارت كأنها جزء منهُ ورأيت ايضًا على فحف الرأس اثر ثوب الكتان واثر النساجة قد انتقش فيهِ كما يرتسمُ على الشمع اذا خُتمَ بهِ على ثوبٍ "

هذا ما كنا نفعلهُ بآثار اسلافنا منذ سبع مئة سنة فاكثر وحتّى الآن لم نرتدع عن هذه الخطة . ومن غريب امرنا اننا اقمنا في هذه الديار اكثر من الف وخمس مئة عام نرى آثار اسلافنا ونقع عيوننا على مخوناتهم ومكتوباتهم ولا نفهم لها معنًى ولا ندرك لها رمزًا وبالامس دخل بلادنا نفرٌ من الفرنسويين والالمانيين والانكليز فحلوا رموز الكتابة المصريّة والاشوريّة والفينيقيّة وعرفوا تاريخ اسلافنا واحوالهم الدينيّة والمدنيّة والسياسيّة والعلميّة والادبيّة وحققوا من ذلك ما لا نقدر نحن ان نحققهُ عن اسلافنا الذين ماتوا منذ مئة عام بل ما لا نقدر ان نحققهُ عن ابناء بلادنا العائشين في هذه الايام لان المطّلع على كتب مريت وبرغش وورلنصن ولبرد وسايس يعرف من احوال المصريين والاشوريين والبابليين والفينيقيين الذين طوتهم الارض منذ ثلاثة آلاف عام اكثر ما يعرف ابناء مصر الآن عن ابناء الشام والعراق وابناء العراق عن ابناء مصر والشام . وابناء الشام عن ابناء مصر والعراق

فقل لنا ما سبب هذا التقهقر والانحطاط أنحن من طينة غير طينة اسلافنا الاوّلين . أو ليس ناموس الكون قاضيًا بارتقاء العقول لا بانحطاطها وبرسوخ الاخلاق الفاضلة لا باضمحلالها . فلو تُرك العقل الشرقي وشأنهُ حيثما كان مرتقيًا لوجب ان يزيد ارتقاء عامًا فعامًا الى ما شاء الله . وقد كان العقل الغربي يخبط في دياجير الهمجيّة حيثما كان العقل

الشرقي مستنيرًا بشمس العمران فلم يرتقِ هو وقنط نحن الاَّ لاننا سرنا واياهُ في خطين متناقضين وطريقين متعاكسين فخلع هو رداء الانحطاط وارتدى حلة الارتقاء وخلعنا نحن حلة الارتقاء ولبسنا ثوب الانحطاط

ولا ننكر النهضة التي نهضتها بلادنا في ايام الرشيد والمأمون وبعض الخلفاء والسلاطين ولكنها لم تطل الاَّ بضع مئين من السنين ومهما يكن من امرها فانها لم تدم على وتيرة واحدة بل عادت البلاد فانحطت ايّ انحطاط وولدنا نحن فيها واحوالها على ما نعلمهُ والفرق بيننا وبين الاوربيين ظاهر في كل شيء . وقد مضى علينا الآن نحو خمسين عامًا ونحن نتلدهم ونقتني خطواتهم وهيهات ان يدرك الظالع شأو الضليع فاننا لا نزال نعتمد عليهم في كل ما نحتاج اليوم الآنة لبخاريّة الى الابرة والمسمار . وكيف التفتنا لا نرى الاَّ المصنوعات الاوربيّة ثيابنا منسوجة في اوربا ولو كان قطنها وصوفها وحريرها من عندنا . وجلود احذيتنا مدبوغة في اوربا وكل قطعة من الحديد في ابواب بيوتنا وكواها وسقوفها مسبوكة في اوربا و بوارج دولتنا ومدافعها واسلحة جنودها وآلات الهندسة والمساحة والتلغراف والتليفون اكثر ذلك مجلوب من اوربا وقد نصنع الورق ونحلج القطن ونخيط الثياب ولكن آلات الوراقة والحلاجة والخياطة مجلوبة كلها من اوربا ولو انقطعت واردات اوربا عنا سنة واحدة لبقينا في ضنك شديد

ولا نقول ان كل احد من الاوربيين يفوق كل احدٍ من الشرقيين فان كثيرين من عامتنا افضل من كثيرين من عامتهم وكثيرين من خاصتنا افضل من كثير من خاصتهم وعندهم شرور ومفاسد لا مثيل لها عندنا ولكن مجمل عمرانهم يفوق مجمل عمراننا بمراحل كثيرة ومجمل عمراننا الآن دون مجمل عمران اسلافنا الاولين

وغنيٌّ عن البيان ان الاستعداد الفطري في الشرقيين للارتقاء ليس دون الاستعداد الفطري في الغربيين فان الذين درسوا منا في مدارس الاوربيين مع ابناء الاوربيين او باروهم في الصناعة او التجارة او غيرها من المطالب لم يقصّروا عنهم بل جاروهم او فاقوهم ولكنهم اضطروا ان يخلعوا كثيرًا من العوائد الشرقيّة ثم هم لم يقدروا ان يجاروا الاوربيين في كل امر ولا استطاعوا ان يواظبوا على هذه المجاراة الحياة كلها . وتعليل ذلك واضح وهو اننا نجري ضد عوائق كثيرة طرأت علينا وملكت منا ومنعتنا عن الارتقاء وهم ذللوا تلك العوائق او ازالوها من طريقهم وحاطوا انفسهم بكل الوسائط التي تسهّل ارتقاءهم فترى مكاتبهم ومتاجرهم ومعارضهم مفتوحة للخاصة والعامة والمدارس منتشرة في كل مدينة وكفر

والتعليم ميسور للعامة كما هو ميسور للخاصة . ونحن لم نستطع شيئاً من ذلك في ما مضى لاسباب كثيرة لا غرض لنا باستقصائها اما الآن فقد كادت الموانع تزول كلها من سبيل الارتقاء فان لم نزل ما بقي منها ولم نرقَ مراقي الفلاح ونجارِ الاوربيين في كل المطالب فالعاقبة وخيمة علينا لان سنّة الكون تقضي بتغلّب القوي على الضعيف وامتهانهِ واماتتهِ . وقد اتصل بنا الاوربيون اتصالاً لا انفكاك له فإما ان نباريهم في الجهاد كما تباري الامم الاوربيّة بعضها بعضاً وهذا هو رجاؤنا وامنيّة نفوسنا والغاية التي نحن واصلون اليها ان شاء الله وإما ان نزيد انحطاطاً باتصالنا بهم الى ان ننقرض لا سمح الله كما انقرض هنود اميركا واهالي جزائر البحر وهذا ما نخاف منهُ ونطلب من كل ذي همة عليّة ونفس ابيّة ان يفرغ الوسع ويبذل الطاقة في تلافيهِ . والنباشير التي رأيناها الى الآن تدلُّ على اننا آخذون في النهوض من سقطتنا واسترجاع مجد اسلافنا ومجاراة جيراننا ونزلاء بلادنا . وعلى ابناء الوطن ان يرحّبوا بمن يلومهم على تأخرهم وتهاملهم اكثر مما يرحبون بمن يملقهم بطيب الكلام ويسهل لهم النوم على بساط الراحة والطمأنينة فان وراء هذا النوم ودون هذه الراحة سمًّا يسري في البدن ومخدّراً يخدّر الدماغ . وفقنا الله الى ما بهِ خير الوطن واعلاء شأنهِ

المكتبة المصرية الاشورية

دع المؤرخين يبحثون عن مكتبة الاسكندريّة التي بقيت في الوجود اعواماً قليلة ويتنازعون على مَن كان السبب في حرقها او تبديد كتبها وهلمّ بنا الى دار التحف بلندن ودار التحف ببرلين فنرى فيهما مكتبتين كبيرتين وُجدتا بالامس في بقعة بصعيد مصر بعد ان دُفنتا فيها اكثر من ثلاثة آلاف عام . وصحائفها ليست من القرطاس الذي يبلى ولا من الرقوق التي تفسد بل من صفائح الاجر التي تصبر على نوائب الدهر وتقلبات الايام . وقد يستغرب اكثر القراء امر هذه الصفائح لانهم لم يسمعوا بها ولو كانت قد وجدت في بلادهم وأُخرجت منها منذ اربع سنوات . ولعلَّ الذين ذكرهم عبد اللطيف البغدادي ومَن بينهم ومَن اتى بعدهم من الذين يبحثون عن " المطالب " عثروا على كثير من المكاتب فاستعملوها اجرًا لبناء البيوت . اما المكتبة التي نحن في صددها فقيّض الله لها ان تقع في يد اناس يقدّرون آثار اسلافنا قدرها فنقلوها الى متاحفهم وعكفوا على حل رموزها واظهار غوامضها وهي عندهم توازي ثقلها ذهبًا . اما كيفيّة كشفها والحقائق التي عُلمت منها الى الآن وصور صفائحها التي